

توظيف الرواية التاريخية في أعمال محمد مفلح

The implementation of historical novel in the works of Muhammad Mufлах

أ/ عائشة سواعدي*

تاريخ النشر: 2021/09/15	تاريخ القبول: 2021/06/03	تاريخ الإرسال: 2020/07/21
-------------------------	--------------------------	---------------------------

الملخص:

يعد التاريخ موردا قويا يغني الرواية بعناصر أولية تكون نقطة انطلاق للبنية السردية و التخيلية، لكونه مادة خام للرواية تقوم بتشكيلها رواثيا وتمزجها بالخيال وتتكئ عليها، والتاريخ بالنسبة للمبدع مادة مهمة يستقي منها موضوعاته، وبذلك يصبغ عمله بصبغة تاريخية، فيصطلح على رواياته بالرواية التاريخية؛ لأن نوع الرواية يتحدد بمضمونها، ونجد الروائي محمد مفلح قد صبغ بعض إبداعاته بهذه الصبغة، أثبت من خلالها تأثره بتاريخ الجزائر بكل مراحلها، وسنحاول في هذا البحث عرض المراحل التاريخية التي تضمنتها رواياته، والطريقة التي لبست فيها هذه المراحل ثوب الرواية التاريخية، لما لذلك من أهمية في الكشف عن قدرته في الانفتاح على التاريخ ووعيه به.

الكلمات المفتاحية: الرواية، التاريخ، الواقع، الخيال.

Abstract:

History is considered as a powerful resource that enriches the novel with primary elements that are a starting point for the narrative and fictional structure, as it is the raw material of the novel that forms it narrative and mixes it with imagination and leans on it, and history for the creator is an important material from which he draws his topics, and thus dyeing his work with a historical nature, so his narratives are termed historical novel , because the type The novel is determined by its content,

المؤلف المرسل: عائشة سواعدي souadia1987@gmail.com

* كلية الآداب واللغات جامعة محمد خيضر "بسكرة" souadia1987@gmail.com

and we find the novelist Muhammad Muflah dyed some of his creations with this dye, through which he proved his influence on the history of Algeria in all its stages, and we will try in this research to present the historical stages included in his novels, and the way in which these stages wore the dress of the historical novel, because of the importance in revealing of his ability to be open to history and it's awareness of.

Keywords: the novel. History. Reality, imagination

*** **

مقدمة:

يشكل التاريخ رافدا من الروافد التي يستقي منها المبدعون أعمالهم الإبداعية، فهو بمثابة عنصر أساسي يساهم بشكل فعال في كينونتها، لذلك نجد الرواية ترتبط ارتباطا وثيقا به، حيث يعمل كلاهما بصورة موحدة على تأسيس عمل لغوي غايته تمثيل واقع معين و تشييد فكرة ما ، بل كلاهما يحتاجان لبعضهما البعض، لكون الرواية تستقبل موادا تاريخية تقوم بتشكيلها روائيا و تمزجها بالخيال وتتكئ عليها في بناء كيائها الفني و تكون ركيزة من ركائزها، بل تكون حتى بنيتها التحتية، والتاريخ هو الآخر يستفيد منها في سد حلقاته المفقودة، وتكون بذلك العلاقة بينهما علاقة تجاذب و تقارب لا علاقة تنافر و تباعد و تضاد .

والتاريخ بالنسبة للمبدع مادة مهمة يستقي منها موضوعاته وشخصياته، وبذلك يصبغ عمله بصبغة تاريخية فيصطلح على رواياته بالرواية التاريخية، لأن نوع الرواية يتحدد بمضمونها، ومن المبدعين الجزائريين الذين صبغوا إبداعاتهم بالصبغة التاريخية الروائي الجزائري محمد مفلح، الذي ألبس رواياته حلة تاريخية، أثبت من خلالها مدى درجة وعيه وشغفه وتأثره بتاريخ الجزائر بكل مراحلها التي بلورها فنيا وصحيا في قوالب متنوعة، وهنا يتبادر في أذهاننا سؤال: كيف بلور الروائي محمد مفلح تاريخ الجزائر بمراحلها فنيا (روائيا)؟ وسنهدف من خلال هذا البحث، وبطرح هذا الإشكال إلى الرجوع للحقب التاريخية التي تضمنتها رواياته، وذلك بعرض الطريقة التي لبست فيها هذه الحقب ثوب الرواية التاريخية، ولكن قبل ذلك لا بأس أن نتطرق إلى الرواية التاريخية ومضمونها. 2.الرواية التاريخية ومضمونها

يستلمهم الروائي التاريخ ويعيد تركيبه فنيًا، وذلك بأخذ منه ما يحتاجه و يعيد صياغة معطياته ليجسد رؤيته و قراءته المعبرة عن مخزون ذاكرته بطريقة جمالية وأسلوب فني، ويكون بذلك قد صبغ عمله بصبغة تاريخية فيصطلح على روايته بالرواية التاريخية، لأن نوع الرواية يتحدد بمضمونها فهي «أوسع من القصة في أحداثها و شخصياتها عدا أنها تشغل حيزا أكبر وزمنا أطول، تتعدد مضامينها، كما هي في القصة فيكون منها الروايات العاطفية و الفلسفية و النفسية و الاجتماعية و التاريخية»¹، و إذا بحثنا في الرواية التي تشغل على المادة التاريخية سنميز بين نوعين من الروايات: النوع الأول هو الرواية التقليدية، والثاني الرواية الجديدة .

1.2 الرواية التاريخية التقليدية:

ومن تعريفات الرواية التقليدية تعريف جوناث فيلد (j.field) الذي يرى أن الرواية تُعد تاريخية « عندما تقدم تواريخا وأشخاصا وأحداثا يمكن التعرض إليهم»²، وتكون بذلك الرواية التاريخية عنده تدور حول حوادث تاريخية وقعت بالفعل في فترة تاريخية و بأشخاص حقيقيين .

أما ستودارد (stoddard) فيرى بأن « الرواية التاريخية تمثل سجلا لحياة الأشخاص أو لعواطفهم تحت بعض الظروف التاريخية »³، وبهذه الرؤيا يجعل الرواية التاريخية تمثل سجلا لحياة الأشخاص و عواطفهم في إطار تاريخي، و يجعلها تعتمد على البناء الروائي الذي يقدس الشخصية و يحافظ على تراتبية الزمن و تسلسله .

فالرواية التاريخية القديمة كانت أحداثها ووقائعها التاريخية حقيقية أي حدثت بالفعل، وكانت تهتم بحياة الشعوب ضمن فترة تاريخية معينة كما تهتم بالشخصية و يكون الزمن بداخلها مسلسلا لا يُعبث به.

2.2 الرواية التاريخية الحديثة:

ازدهرت الرواية التاريخية الحديثة كل الازدهار حيث أصبحت تشغل على المادة التاريخية بشكل فني بارع، و يعرفها جورج لوكاتش (Georg Lukacs) بأنها: « رواية تثير

الحاضر، ويعيشها المعاصرون بوصفها تاريخهم السابق للذات»⁴. وهو بذلك يربط الرواية التاريخية بالحاضر ولا يتركها حبيسة الماضي فهي تستحضره و تعيد بناءه من جديد، كما نجده يؤكد في كتابه الرواية التاريخية: «أن ما بهم في الرواية التاريخية ليس إعادة سرد الأحداث التاريخية الكبيرة، بل الإيقاظ الشعوري للناس الذين برزوا في تلك الأحداث، وما بهم هو أن نعيش مرة أخرى الدوافع الاجتماعية و الإنسانية التي أدت بهم أن يفكروا و يشعروا و يتصرفوا كما فعلوا ذلك تماما في الواقع التاريخي»⁵.

فالرواية التاريخية لا تعيد الزمن الماضي و لا تركز على الجوانب التي يكون الخطاب الرسمي قد أوردها بل تحاول إبراز الجوانب التي أهملها، فهي تقوم على استخلاص فردية الشخصيات و شعورها ودوافعها من الطابع التاريخي الخاص لعصرهم.

ويعرفها ألفرد شيبارد (ALFRED SHEPPARD) بقوله: «تتناول القصة التاريخية الماضي بصورة خيالية، يتمتع الروائي بقدرات واسعة يستطيع معها تجاوز حدود التاريخ، لكن على شرط أن لا يستقر هناك لفترة طويلة إلا إذا كان الخيال يمثل جزءا من البناء الذي سيستقر فيه التاريخ»⁶، فهو بهذا المفهوم يقحم عنصر الخيال في الرواية، فيتجاوز الروائي فيها التاريخ بإدخال عنصر الخيال و لكن دون التماهي في ذلك التجاوز، و تكون بذلك قد مزجت بين عنصرين (الواقع/المتخيل) في بنيتها.

والرواية التاريخية تُدخل التاريخ في بنيتها وتمنحه قالباً جديداً، فيخضع لكاتب الرواية الذي يمرر عبره آرائه الشخصية وأيديولوجيته الخاصة «فتنحرف الرواية بالتاريخ لغاية في نفس الكاتب، لا شأن لها في التاريخ إلا التسمية، بل هي عصرنه لفكرة ما لدى الفنان»⁷، وهي بذلك عودة للماضي برؤية أنية عبر عنصر الخيال، تعبر عن مواقف ورؤى للعالم يقصدها الروائي وتخلص إلى أهداف محددة يستعد المتلقي معرفياً لخوضها ويسعى لتحقيقها.

وهي بذلك تدمج التاريخ في نسيجها السردى و تعطية صورة مغايرة لصورته الحقيقية عبر عنصر الخيال، فيتغير بذلك زمانه و مكانه و أحداثه و شخصياته فتعمد

إلى « أن تصبح الشخصية نموذجا بشريا ولا تبقى أسيرة زماها و فيها يتحقق الامتداد بين الماضي و الحاضر و تتعدد الضمائر و يُجبر القارئ على المشاركة في الأحداث باندماجها في المقروء»⁸، و تخلق بذلك زمان و مكان و شخصيات خيالية تدفع وتيرة الأحداث و تُطورها، فيكون بذلك المبدع غير مدين للتاريخ بل هدفه الأول و الأخير هو التعبير عن الفكرة و القضية التي يكتب داخل نطاقها، و يسعى لإثارتها من خلال الرجوع إلى مرحلة تاريخية معينة.

وهذا الرجوع إلى الحقب التاريخية نجد له صدى في الكتابة الروائية الجزائرية حيث نلمس في الأعمال الأدبية الجزائرية حضور سياقين بارزين : « سياق الثورة و الشهداء المرتبطة بالفترة الاستعمارية و ما بعدها، و سياق الإرهاب الذي يحيل إلى تسعينات القرن الماضي ،تلك العشرية السوداء »⁹، و من الروائيين الجزائريين الذين تعاملوا مع هذه الحقب الروائي " محمد مفلح "، الذي ألبس رواياته التاريخية دلالات فكرية ورؤى متعددة فتحت النص على الكثير من القراءات، باستخدام تقنيات سردية حديثة تتعامل مع التاريخ و أحداثه و شخصياته وأماكنه المختلفة برؤية جديدة .

3. حضور الرواية التاريخية في أعمال محمد مفلح

أخذ التاريخ حصة الأسد من روايات محمد مفلح، حيث ورد في داخلها بمواقع و أشكال مختلفة، فأثبتت بذلك قدرة محمد مفلح في الانفتاح على التاريخ ومدى درجة الوعي به، إذ استدعاه لتحقيق أبعاد جمالية و فهم متناقضات الحياة و معالجة قضايا حساسة حاضرة و البحث عن مستقبل أفضل .

و روايات محمد مفلح تؤكد على أنه متابع و متأثر بتاريخ الجزائر بكل مراحلها، حيث بلور فنيا هذه المراحل وصمها في قوالب متنوعة، و نجد أعماله الروائية تتضمن محطات من تاريخ الجزائر وهي :*- مرحلة الاستعمار الفرنسي،*- مرحلة الجزائر المستقلة .

وبعد أن حددنا المراحل التاريخية التي تتضمنها روايات محمد مفلح سنتعرض إلى الطريقة التي لبست فيها هذه المراحل ثوب الرواية.

1.3 مرحلة الاستعمار الفرنسي:

وتنقسم بدورها إلى مرحلتين : مرحلة ما قبل الثورة التحريرية و المرحلة التي عايشتها.

1.1.3 مرحلة ما قبل الثورة التحريرية:

وتمثلها رواية خيرة و الجبال و نجدها تصور الحياة الاجتماعية المزرية التي عاشها الشعب الجزائري من فقر، وجهل، ومرض، وظلم، وتعسف كما تنقل لنا وحشية الاستعمار» وكل الصور المشينة التي من شأنها أن تحمل على كره الاستعمار ونبذه، بل وتعرض على الثورة عليه»¹⁰.

و ابن عودة في الرواية هو جزء من هذا الشعب الجزائري الذي عاش الحرمان و البؤس هو و ابنته خيرة، في وطنه ولا يملك أرضا ف: « المعمر لم يترك لنا أي شئ ، و ما نملك من أرض لا يصلح للزراعة »¹¹ ، فقد سلب منهم المعمر أراضيهم و جوعهم و أذلهم و سخرهم لخدمته ولعلّ هذا المقطع الوارد في الرواية خير دليل على ذلك « بدأ أبوك حياته عاملا في مزرعة المعمر "سوبارى"، ينهض مع طلوع الفجر و لا يعود إلا بعد صلاة المغرب .. ورغم ذلك اتهمه المعمر بالسرقة، وطرده من العمل، ثم شكاه إلى الدرك .. جلده رجال الدرك الفرنسي و طاردوه في كل مكان كما طارده الجوع .. نعم الجوع الذي كنا نحاربه بأكل الفول اليابس و الحشائش البرية »¹² ، فقد كان الهم الأوحده للشعب الجزائري آنذاك اختصار النفقات و توفير لقمة العيش؛ أي محاربة الجوع بدل محاربة الاستعمار إلى أن تنامي لديه الوعي بضرورة التمرد ضد المحتل، و رفع التحدي ضدهم، ولعل خيرة في الرواية و أزواجها نماذج لأبناء الجزائر الغيورين على وطنهم.

فعلى الرغم من أنها امرأة إلا أنها كانت لا تخاف أحدا و تقف كالصنديد في وجه المستعمر و عملائه، فقد ثارت مرة في وجه محمود ابن القايد الحبيب هذا القايد الذي

أهلك أهل القرية ببطشه و ظلمه: « دخلت البيت باحثة عن قطعة حديد رأيتها في المطبخ، فكرت أن تهشم بها رأسه، و رجعت بسرعة وهي تمسك قضيب حديدا، استقل محمود سيارته نحو وسط المدينة، وظلت خيرة منتصبة أمام البيت.¹³ »

فالقائد الحبيب تزوجها بعد وفاة زوجها الأول " يحيى اليتيم " و أرادت الانتقام منه فقد كانت « تؤمن بأن القائد يمثل أكبر خطر عرفته المنطقة.. وهو الذي قتل زوجها الأول يحيى اليتيم . »¹⁴ ، والد ابنها راشد .

فتظهر في الرواية عدوى التحدي و التمرد على الأوضاع السائدة بدءا من يحيى اليتيم الذي استولى المعمر " سوباري " على أرض يملكها، أثار هذا الأمر في يحيى اليتيم كره للمعمر و عملائه، و اشتعلت نار الغضب و الانتقام بداخله فاقتنع بضرورة الدفاع عن حقه المسلوب و قتل المعمر و الالتحاق بالجبل الأخضر.

و شاءت الأقدار أن يعود يحيى اليتيم محمولا على أكتاف الرعاة، وكان مقتولا وبعد وفاته تركت خيرة ابنتها راشد عند والديها في القرية، وكان حلمها الوحيد أن تصل المدينة و تعيش بحرية، وفي طريقها التقت بالمهدي الشاقور الذي غيرها و غير وجهتها لتتجه معه إلى الجبل الأخضر و يتزوجها، فتصبح من سكان الجبل الأخضر، وتنجب منه المهدي الذي تتركه عند ضربتها، وتزوج بعد ذلك بعواد الهم الرجل الذي بث فيها روح الحماس للثورة، فلما ولدت ابنه الطاهر سلمته إلى عمته الأرملة و حولت بذلك « عاطفة الأمومة حول النشاط الثوري »¹⁵.

ودخلت بذلك في نيران الثورة، فخيرة هذه المرأة القوية الشجاعة التي كانت لغزا بالنسبة لسكان قريتها ترمز للثورة، إنها امرأة ليست ككل النساء، و ثورة الجزائر ليست ككل الثورات، والرجال الذين تزوجتهم واستشهدوا ما هم إلا رمز لأبطال وشهداء الجزائر الذين ألقوا بأنفسهم في بركان الثورة، فما إن يستشهد أحدهم يظهر آخر يواصل مشواره وهذا ما تؤكد عليه هذه العبارة الواردة في الرواية بعد قتل يحيى اليتيم فكل القرية بكته بحزن إلا خيرة ابتسمت قائلة: « قتل يحيى و لكن ابني سيعيش »¹⁶.

فشرارة الثورة لا تخمد و إنما تتوارث جيل عن جيل و تتفجر كالبركان في وجه المستعمر، ونجد محمد مفلح يفجر الثورة بمنطقته غليزان التي احتضنت الثورة كغيرها من مناطق الجزائر و ذلك في روايته الانفجار التي بدأها بالآية الكريمة: « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم »¹⁷ ، وهنا يمرر رسالة مفادها مفتاح الحرية هو النضال و التحرك و معانقة الجهاد ، حيث جاء في الرواية على لسان عبد الهادي و هو أحد الأبطال المتعطشين إلى الثورة: « علينا أن نفكر في مصيرنا .. مصير هذا الوطن المنكوب .. إلى متى تظل مستعدين ؟ إلى متى ؟ وانفجر كالبركان: علينا أن نتحرك ونقضي على الغاصبين. »¹⁸ ، و أضاف قائلاً : « - صدقوا .. لن يتحقق الاستقلال إلا بالكفاح المسلح .. أجل لقد انطلقت الثورة وهذا هو المهم .. ثم سيأتي التنظيم. »¹⁹ .

فبعد الهادي الذي ألقى بنفسه في نيران الثورة هذه الشخصية التي جعلها الروائي تشحن أهل قريته بموجات الثورة، يحمل اسمه الكثير من المعاني المتميزة فهو يعني « المرشد و الدليل و المتقدم الذي يقود قومه أو جماعته. »²⁰ ونجد عبد الهادي في الرواية، يرشد أهل قريته إلى أحقية قضيتهم فيقول: « نملك الإيمان بقضيتنا العادلة .. (...) الثورة انطلقت .. لا يوجد هناك خيار آخر... »²¹ .

فتغيرت القرية كثيرا فهي تتحرك نحو المواجهة، فنيران الثورة قد اشتعلت في كامل القطر الجزائري.

2.1.3 مرحلة الثورة التحريرية:

تنامي الوعي لدى الجزائريين بضرورة التمرد ضد المحتل، وجاء زمن النيران هذه النيران كان وقودها الجوع و العري و الحزن، و تثور رواية هموم الزمن الفلاقي على هذا الجوع الذي كان شمس الحياة و تجيب على سؤال، لماذا هذا الجوع ؟ هذا السؤال الذي بقي معلقا و ليس له جواب إلى غاية زمن الانفجار و النضج الفكري .

وتظهر شخصية " حماد الفلاقي " في الرواية أنموذجا لهذا النضج و النمو الفكري، فبعد أن وضع القبلة التي سلمها له " سي عدة " في خمارة ليون، و بعد انفجار

القنبلة تغير جذريا وتحول إلى شخصية قوية و شجاعة ثائرة على معيشتها المضنية و التي كان سببها الاستعمار .

ويُحضر لنا محمد مفلح "حماد الفلاقي" في « صورة الوطني المجاهد التي تجتمع فيه كل صفات البطولة لكن الكاتب يمهّد لعملية تحول البطل بتصوير الحياة الاجتماعية ، المزرية التي يعيشها (...) وكل الصور المشينة التي من شأنها أن تحمل على كره الاستعمار و نبذه، بل و تحرض على الثورة عليه»²².

فالظروف التي عاشها حماد الفلاقي والتي نهشت حياته من فقر وبؤس وحزن و حرمان كانت أَلَم مخاض، أنجَزَ عنه ميلاد حماد لا يعرف للاستسلام شيئا، لا يتجرأ الخوف الاقتراب منه .

بالإضافة إلى استحضاره الروائي شخصية "حماد الفلاقي" في صورة بطل دفعته ظروفه الاجتماعية المضنية وهموم الزمن إلى التمرد ضد المحتل، يستحضر كذلك «الحرب بوصفها صراعا بين الكتلة الوطنية من الجزائريين والكتلة الاستعمارية من الفرنسيين»²³ ، فالكتلة الأولى هم المجاهدون الجزائريون، والكتلة الثانية هم المستعمرون الفرنسيون، غير أن محمد مفلح في تصوير الكتلة الثانية يصب جلّ اهتمامه على فئة الخونة الذين باعوا شرفهم لفرنسا وتأمروا ضد إخوانهم الجزائريين ومثّل لهم الروائي بالحركيين موسى الجواج و جلول الكلي اللذين احتلا حضورا واسعا في متن الرواية مقارنة بباقي الشخصيات التي تمثل هذه الكتلة.

ألْبست الرواية هذين الحركيين ثوب الخيانة والخوف في أبشع صورهما، وفي نهاية الرواية نجد حماد يضع حدا لجلول الكلي وجرائمه بعد أن أجهز عليه بسكينة حادة رده جثة هامدة، فكان عبرة للحركي موسى الجواج الذي لا تقل جرائمه بشاعة عن جرائم جلول الكلي ، ولكن بعد سماعه بذبح حماد لجلول الحركي تسلسل الخوف إلى قلبه ولم يستطع السيطرة على نفسه وراح يجول في قرية المحاور حاملا منديلا أبيضا .

و المنديل الأبيض رمز للاستسلام ، فمثلما أجبر حماد موسى الجواج على حمله في رواية " هموم الزمن الفلاقي" نجد المجاهدون يقضون على هذه الكتلة التي باعت وطنها وخانتها في رواية " زمن العشق والأخطار".

هذه الأخيرة التي جرت أحداثها بمدينة غليزان بالضبط في "قرية العين" التي يحتضنها الجبل الأخضر كطفلة يتيمة ، أصبحت هذه القرية مأوى للمجاهدين بعد أن كانت مأوى للمرض والجوع والعري، هؤلاء المجاهدون أبناء المنطقة، أيقنوا بضرورة التمرد على فرنسا، و وقفوا كرجل واحد ضد بشائع الاستعمار والأحزان التي لم تمل الرواية من ذكرها سواء التي كانت في حدود زمن الرواية، أو التي كانت خارجة عنه.

و هذه الأحزان التي خيمت على القرية لا يعنى أن كل أوقاتها كانت أحزان، بل قاوم سكانها هذه الأحزان بإعطاء فرصة لحضور الحب في خضم هذا الحرب، فوجد هذا الحب ينمو بين بعض الشخصيات في رواية "زمن العشق والأخطار"، أمثال الحب الذي كان بين عابد المقري وزليخة، و بين حسين بن الهاني وهيبة بنت بن عودة الحطاب.

و ما يميز هذا الحب أنه مد يد العون للثورة، ودفع وتيرة الأحداث للأمام، فعابد استطاع أن يخلق من زليخة أسطورة وكأنها لم تعيش في القرية، فحبه جعلها أكثر حماسة وجراًة ففي « ظرف أيام فقط، وصل حب زليخة درجة الغليان...» لقد اكتشفت زليخة نفسها في ممارسة العشق...، أصبح اسم زليخة رمزاً مثيراً للحماسة.. ومن أين استمدت الفتاة تلك الجرأة الغريبة؟²⁴.

هذه الجرأة الغريبة غرسها حب عابد في نفسها، هذا الحب الذي ما كاد يلبث حتى أجهض من قبل المستعمر، الذي قضى على زليخة بعد قيامها بعملية فدائية،

وبذلك تكون نهاية حب عابد و زليخة مؤلمة فخلقت هذه النهاية بعدا تراجيديا مأساويا داخل الرواية.. فإذا كان حب عابد و زليخة قد تم وأده فإن حب حسين و وهيبة قد كُمل بالزواج والنهية السعيدة، هذا الحب الذي كان سببا في دعم الثورة كذلك فلا أحد

كان يشك في لقاءهما لكونهما خطيبين بالرغم من أن اللقاء كان حول الثورة والقفة التي كانت تحملها فيها أسلحة.

حيث أن عرس حسين و وهيبة كان جزء من خطة هجومية للمجاهدين عل الثكنة العسكرية الموجودة بالقرية والقضاء عليها، ومثلما حررت القرية حررت قرى أخرى، و حررت الجزائر قاطبة بفضل أبنائها الصناديد، وتم الاعتراف بدولة اسمها الجزائر، وشعب يدعى الشعب الجزائري، لتدخل الجزائر بعدها في عهد جديد "عهد الجزائر المستقلة".

2.3 عهد الجزائر المستقلة:

نجد محمد مفلح متتبعا شغوبا للتاريخ الجزائري، حيث أن قلمه الإبداعي استضاف كل الأحداث المرتبطة بهذا التاريخ بالتسلسل، فبعد احتفائه بالثورة وتمجيده لها و لانتصاراتها في رواياته الأروع، يواصل استنزاف التاريخ لينقلنا إلى مرحلة أخرى من تاريخ الجزائر "مرحلة الجزائر المستقلة"، حيث حاول رصد التحولات الاجتماعية والسياسية و الاقتصادية التي عرفها واقع الجزائر بعد الاستقلال، بالتفاتة للواقع الصاحب الذي عرفته الجزائر في الثمانينات، وبذلك يغوص في الزمن التاريخي عن طريق الحياة الاجتماعية.

1.2.3 دلالة الزمن التاريخي داخل الزمن الاجتماعي في روايات "ما بعد الاستقلال":

الزمن التاريخي يتميز بأحداث وتطلعات ومواقف الأفراد، إذ أن دلالة الرؤية التاريخية يحددها ويرسمها الواقع الاجتماعي، ومن روايات "محمد مفلح" التي جسدت مرحلة ما بعد الاستقلال، ورصدت التحولات السياسية والاقتصادية لتلك المرحلة وربطتها بالحياة الاجتماعية (رواية بيت الحمراء، و رواية الكافية والوشام، رواية عائلة من الفخار).

1.1.2.3 رواية بيت الحمراء:

ينطلق في كتابتها من هموم حي شعبي وسط مدينته غليزان، و يورد في بداية روايته (بيت الحمراء) عبارة «الحياة قاسية ولا ترحم الضعفاء»²⁵، فيصور لنا واقعا مفككا، مظلمًا وخلق هذا الواقع تعدد طبقي واضح، لم يدفع ثمنه إلا الطبقة الكادحة

(البروليتاريا)، التي يصورها الكاتب في أقصى معاناتها، ويبيّن بأنها مهمشة ومنبوذة من قبل المجتمع.

كما يصور الروائي الواقع آنذاك محتدماً بالصراع والذي تجسده شخصيات الرواية : الصراع بين عواد الروحي وقذور بلمريكان، فاطمة الحمراء وابنتها نعيمة زلاميت، الإمام و جماعة الزلط، موسى البقال و سليمان السواق، عبد الله بن موسى البقال بينه وبين والده وبينه وبين السعداوي، فالرواية تحوي: «مظاهر الصراع الحداثي الذي يغذي الرواية حتى مشارف نهايتها، كسيرورة مجتمعية حتمتها ضرورة فنية، والصراع يقوم بين متضادات، وتنوع شخوص الرواية يؤدي هذا المفهوم، فقذور بلمريكان "رأس مالي رجعي"، عبد الله بن موسى "إسلامي"، السعداوي "مناضل تقدمي"، عواد الروحي "بروليتاري مهمش"....»²⁶.

وهذه التضادية بين الشخصيات هي التي تدفع بأحداث الرواية إلى الاستمرار والتقدم وتغذيها لكونها «تثري دلالة الزمن التاريخي الذي يحمل معاني الاختلاف والتعارض والتباين الفكري العقائدي في المجتمع ويجسد حلم التغيير الذي يراود الفئات الأكثر معاناة في المجتمع»²⁷.

ونجد الصراع داخل الرواية عُرِّ عنه عن طريق تنوع الشخوص بطريقة إيحائية أكثر عند استخدام اللون الأحمر بين طيات الرواية بدءاً بالعنوان "بيت الحمراء".

فشبكة العلاقات تُؤسس: «انطلاقاً من الرواية للصراع بين الشخوص وهو أحد دلالات اللون الأحمر»²⁸، هذا اللون الذي يرمز إلى «الحرب والدمار والنيران وسفك الدماء»²⁹.

ونجد العنوان يضم اللون الأحمر "بيت الحمراء"، وإذا توغلنا في النص لمعرفة دلالة هذا العنوان، نجد تسمية هذا البيت نسبة لفاطمة الحمراء، و نجده يرتبط بها ويدل كذلك على مرحلة تاريخية، ألا وهي الاشتراكية، فإذا رجعنا إلى المرحلة التي جرت فيها أحداث الرواية نجدها مرحلة النظام الاشتراكي في الجزائر، وهذا المقطع من الرواية يدل

على ذلك فجاء على لسان السعداوي : «في مدينتنا نشاهد كل يوم مناورات الرجعية وتكالبها على المكاسب الشعبية..أصبح أعداء الثورة يشككون في اختيارنا الاشتراكي ويتهمون خاصة على الثورة الزراعية»³⁰.

وما يبين على أن اللون الأحمر في دلالاته الإيديولوجية رمز الاشتراكية قول عبد الله بن موسى البقال: «قائلا بحدّة: -نحن لا نريد الغد الأحمر فالأمة المجاهدة لا تقبل أن يتفشى الانحلال بين أبنائها..الاشتراكية خطر على الأمة..»³¹ ، وانطلاقا من هذا يمكن أخذ شخصية "السعداوي" وشخصية "عبد الله بن موسى البقال" مثالا عن انقسام المجتمع الجزائري إلى مؤيد ومعارض للاشتراكية، ويكون القصد من العنوان "بيت الحمراء" لا بيت فاطمة كشخص وإنما بيت الاشتراكية، هذا الأخير الذي كان بلاطه يشهد عدة صراعات بين الواقع السياسي والاجتماعي .

فكانت الأوضاع المزرية والمساوية للمجتمع بمثابة التربة الخصبة التي احتوت في باطنها الرغبة في التغيير، وعملت على نموها لتخرج من تحتها وتتحوّل من مجرد الرغبة في التغيير إلى تطبيقه، فكانت أحداث أكتوبر 1988 م مسرحا للتطبيق .

وهذه الأحداث وهذا التغيير تنبأ له أحداث الرواية لأن مجمل أحداث هذه الرواية «تتلخص في ذلك التصادم بين الأزمنة الوجودية وبين الهموم و الطموحات الإنسانية.حيث يطرح الحاضر المعاني في زاوية مظلمة وقاتمة تنبئ بالانفجار الذي حدث في 5 أكتوبر 1988.

»³².

وبعد هذه الرواية يتحقق التنبؤ ويخرج شهر أكتوبر من عالم الرواية إلى عالم الحقيقة، ويكون الخامس من شهر أكتوبر 1988 م يوما شاهدا على ذلك، وقد أعقبت هذا اليوم أحداث وصراعات وقرارات سياسية، كما أعقبته جراح التأمّت بعد أن طال شفاؤها، ليعود إليها محمد مفلح ويضع أصبعه على بعض منها في قالب سردي يمتزج فيه التاريخ مع المتخيل، من خلال أربع روايات صدرت له، ومن بين هذه الروايات " رواية الكافية والوشام"

2.1.2.3 رواية الكافية والوشام:

يقول " محمد مفلح " حولها : « وقد عدت فيها إلى البداية الصاخبة لأحداث أكتوبر»³³ ، هذا الشهر الذي كان بؤرة انطلاق ومرجعا وبداية لكثير من رواياته .

ونجد محمد مفلح في بداية رواية " الكافية و الوشام " يصف لنا الواقع الذي أعقب أحداث أكتوبر مباشرة بواقع معقد أفرز عدة أزمت،

ومن الشخصيات التي نجد لها حضور وافر في الرواية: شخصية "فتيحة الوشّام" زوجة "أحمد معاليش" صاحب شركة (الكافية)، واسم "فتيحة الوشّام" يتركب من شقين الشق الأول "فتيحة" والشق الثاني "الوشّام"، و اسم "فتيحة" صيغة مبالغة من الفعل "فتح"، واختاره الروائي عن قصد، ليكون الاسم مزامنا لعهد الانفتاح الذي دخلت فيه الجزائر ورمزا له ومطابقا له من حيث الدلالة، لكون الانفتاح مصدرا مأخوذا من الفعل المزيد "انفتح"، وإذا جردناه من حروف الزيادة يصبح "فتح"، هذا الفعل شكل نقطة التقاء بين فتيحة و الانفتاح.

و الوشّام الذي يقصده الكاتب في الرواية ليس ذلك الفنان الذي يرسم على أجساد زبائنه برفق ولين، بل يقصد زمن الانفتاح والتعددية الذي وشم الحزن، والأسى و العنف، و الانتقام، والطمع على أجساد الناس.

وتعود بنا الرواية إلى بداية التعددية الحزبية في الجزائر متخذة إياها مرجعا تاريخيا، حيث وردت عدة عبارات تدل على ذلك داخل الرواية من بينها على سبيل لا الحصر: «لقد أصبح الجفاف العنيد شبعا مخيفا في مرحلة ولدت فيها أحزاب كثيرة مختلفة البرامج و المشاريع، وأصبحت الخطب الحماسية تردد في كل مكان»³⁴.

كما نجد الرواية تتحدث عن غلق الشركات العمومية وحل المؤسسات المحلية الخاصة آنذاك والعنوان خير دليل على ذلك، حيث أن الشق الأول منه اسم للشركة العمومية (الكافية) التي كان يديرها "أحمد معاليش"، كُلف بتسييرها في عهد إعادة هيكلة المؤسسات العمومية،

وإذا توغلنا داخل الرواية نجد كل الشخصيات تشعر بالتأزم، و عدم الارتياح والقلق والضيق في أهوال هذا الزمن الوشّام، ونجد آثاره بارزة على أجسادهم وحتى نفسياتهم التي صورها الروائي تصويرا دقيقا يعكس لحظة التأزم التي يشعرون بها ففي وصفه لنفسية "فتيحة الوشّام" في فترة زمنية خير دليل على ذلك إذ يقول: «صباح هذا اليوم المتهجم كما لم تتمكن من السيطرة على نفسها التي استولى عليها قلق رهيب و إحساس غريب بالوحدة». ³⁵،

إن توظيف كلمة قلق وإضافة صفة رهيب إليه وكلمة إحساس واتباعه بصفة غريب، هاتان الصفتان زادتا المعنى وضوحا وعكستا نفسية "فتيحة" مما جعلنا نشعر بها، كما يبرز ذكاء الروائي في انتقاء الألفاظ المناسبة التي تخدم نصه وموقفه المتخاذل من الزمن في المقطع السابق من خلال توظيفه للفظلة "صباح هذا اليوم المتهجم"، ففترة الصباح تُعرف بنشاطها ونفسيها المتجدد و المتفائل إلا أن الروائي أضاف لها عبارة " هذا اليوم المتهجم" ليجعلها مؤشرا للإحساس بالتشاؤم وتزعج للصباح صفة التفاؤل.

كما نجد غياب للرؤية الزمنية المتفائلة داخل البنية الاجتماعية وذلك من خلال انعدام حقل مفرداتي للفرح والأمل والاطمئنان داخل الرواية، وسيطرة حقل مفرداتي للحزن والقلق والفقر والبطالة على صفحاتها على سبيل المثال (هموم، أزمت، واقع معقد، قلق رهيب، إحساس غريب بالوحدة، مصائب هذا الزمن العنيد، مخالف الفقر المدقع، هموم الحي الشعبي الوقوف بلا أمل، الحياة القاسية...)، ومن خلال هذا الحقل المفرداتي الذي يضيف على الرواية مسحة الهموم والتشاؤم يصور لنا محمد مفلح الواقع الاجتماعي آنذاك، ويتخذ كشاهد على مرحلة تاريخية دخلت إليها الجزائر بعد أحداث أكتوبر 1988.

3.1.2.3 رواية عائلة من الفخار:

وتواصل عواصف شهر أكتوبر شحن ذاكرة الروائي ليعود لتلك الفترة التاريخية في رواية أخرى أسماها "عائلة من فخار" ، فتهب ربح أكتوبر على أحداثها حيث ورد في بداية

الرواية: «هبّت الريح الشرقية على المدينة الرابضة بالربوة الجرداء وسهلها الخصيب، وراحت تجلد بحارثها المقيّنة البنايات المغروسة بشكل فوضوي في حي (البرتقال)»³⁶.

ومن خلال هذه البداية نصادف ذكاء الروائي في اختيار افتتاحية روايته، فأورد لفظة "الريح" بدل "الرياح" لما بينهما من اختلاف في المعنى؛ لأن لفظة "الريح" المفردة اقترن ورودها في القرآن الكريم في أغلب المواضع بالعذاب، بينما "الرياح" الجمع إقترن معناها بالرحمة والبركة والبشرى.

ولذلك ريح أكتوبر اجتمعت وصارت واحدة فعصفت فحملت معها العذاب والفقر، البطالة، الطبقة، الهجرة غير الشرعية، الإرهاب...

وإذا توغلنا داخل الرواية نجد الشخصيات تتخبط في هذا العذاب الذي حملته ريح شهر أكتوبر، ريح التغيير التي اقتلعت شجرة الاشتراكية وغرست مكانها شجرة التعددية والانفتاح التي أثمرت الهموم والفقر والبطالة...، فكسرت بذلك أفق الانتظار لدى الجزائريين الذين كانوا يحلمون بغدٍ مشرقٍ بعد التغيير.

هذه الريح دفعتنا بقوة للدخول إلى متن الرواية، فاصطدنا بحرارتها المرتفعة التي تبعث بخيوطها الحارة على مدينة تتصارع مع حاضر صعبٍ، أثبت من خلاله الروائي وفائه للفترة التاريخية التي جرت فيها الأحداث إذ اتخذها مرجعا تاريخيا، حيث استطاع أن يعيد تكوين واقع تلك الفترة ويكشف عن الواقع المعيش في شتى أشكاله، هذا الواقع الذي يُسمع أنيبه تحت أنقاض البطالة، الفقر، التشتت العائلي، المصلحة والمحسوبية.

فعائلة من فخار يتخذها الروائي أنموذجا للعائلات الجزائرية التي كانت تتخبط في هموم الحاضر آنذاك، تبدأ مشكلة هذه العائلة عند التقاعد المسبق للوالد لخضر ولد فخار نتيجة تسريح العمال بعد خوصصة المؤسسات العمومية.

ولفظة "الفخار" تعكس الحالة الاجتماعية لهذه العائلة، لكون مادة الفخار تُعرف بهشاشتها وقابليتها للكسر، فهذه العائلة قد تعرضت للانكسار نتيجة وضعها الاجتماعي الهش، ونتائج هذا الانكسار تظهر من خلال انكسار أو اصر العلاقة داخل هذه العائلة،

التي شبهها ابنها موسى «بباخرة مثقوبة في قلب الأمواج الهائجة»³⁷. وأصبح كل واحد داخل عائلة الفخار يريد الهجرة من أعباء هذا الزمن .

ففي الرواية حتى المثقف الجزائري يحاول التملص من أعباء هذا الزمن المتجبر الذي اتخذ الروائي مرجعا تاريخيا لروايته، ويهاجر إلى الغرب سواء عن طريق الحرق أو الهجرة .

وتورد الرواية كذلك نوع آخر من الهجرة التي أنجبها الزمن المتورم، فإذا كان هناك من يرى أن النجاة من هذا الزمن تكون بالوصول إلى الضفة الأخرى، فهناك من يراها في الهجرة إلى داخل الذات نفسها بالعزلة والتزام الصمت، وهذا ما فعلته شخصية لخضر ولد الفخار الذي هرب من مواجهة الزمن و تحول إلى إنسان آخر، و قرر قهر نفسه بالعزلة والابتعاد عن هذه الحياة التافهة والواقع الزائل .

فالكل داخل الرواية « يهدف إلى تغيير زمنيته المقلقة إلى زمنية سعيدة...تمكنه من تذوق الراحة في الحركة والأمن في التعبير...»³⁸ ، وقد تفنن محمد مفلح في تجسيد هذا الزمن، بتوتراته وقلاقله وهمومه التي أفرزها الواقع الجديد، والتي كانت سببا مباشرا في رغبة الشخصيات في الهروب من الزمن الحاضر .

4. خاتمة

و في الأخير يمكن القول بالإجمال وبلاستناد إلى ما تناولناه في هذا البحث :أن التاريخ شكل رافدا قويا استقت منه الأعمال الإبداعية للمبدع محمد مفلح، فكان بمثابة عنصر أساسي ساهم بشكل فعال في كينونتها، فقد غطت أعماله الروائية مراحل زمنية مختلفة من تاريخ الجزائر، أثبت من خلالها حبه وتعلقه بهذا التاريخ، وبأنه متتبعا شغوفاً له، ويظهر ذلك من خلال ما أساله قلمه الإبداعي من حبر أجبر التاريخ على إفراغ ما في جعبته، فكتب رواياته التاريخية، بدءا برواياته الأربع التي تشكل رباعية الجبل الأخضر (الانفجار، هموم الزمن الفلاقي، زمن العشق والأخطار، خيرة والجبال) وانتقل في هذه الرباعية إلى مرحلة مهمة من تاريخ الجزائر " مرحلة الاستعمار الفرنسي" وما عشته شخوص

منطقته (غليزان) من ولايات الاستعمار، وكيف احتضنت الثورة المجيدة ككل مناطق البلاد، والتفت بعد هذه الروايات الأربع إلى الواقع الصاخب التي عرفته الجزائر في الثمانينات من خلال رواية "بيت الحمراء" فعبرت عن مجتمع يشهد أزمة اقتصادية وصراعات سياسية خفية في عهد المراجعة لا التراجع الذي جاء بعد وفاة الرئيس هواري بومدين منطلقاً في كتابتها من هموم حي شعبي، ثم كانت عاصفة الخامس من شهر أكتوبر 1988 وما أعقبها من أحداث وصراعات وقرارات سياسية من أبرز هذه الأحداث دستور فبراير 1989 الذي فتح باب التعددية الحزبية، فمرّ الشعب بفترة صعبة، ودخلت البلاد في صراعات سياسية أدت إلى دخول البلاد في دوامة العشرية السوداء، نجد محمد مفلح يعود إلى هذه الفترة بعد عودة الأمن والسلم، من خلال إصدار رواية "الكافية والوشام" و رواية "عائلة من الفخار"، فعبرت الروايتان عن الواقع المزري الذي خلفته أحداث أكتوبر 1988، فكانتا بمثابة المشكاة التي أُسْتُعِين بها « على فرز محتواة ذلك الواقع وترتيب شؤونه وتحليل أبعاده ومعطياته »³⁹ فعملتا على تعرية الواقع، وكشف خبايا النفوس، فقد لعبتا دوراً بارزاً في الربط بين الزمن التاريخي والزمن الاجتماعي الذي عمل على استحضار التاريخ واستمرار وجوده داخل الروائيتين.

5.الهوامش:

- 1 - عزيزة مريدن، القصة والرواية، دار الفكر، (د ط)، دمشق، (د ت)، ص 14.
- 2- نضال شمالي، الرواية والتاريخ (بحث في مستويات الخطاب في الرواية التاريخية العربية)، عالم الكتب الحديث، ط 1، الأردن، 2006، ص 108.
- 3- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.
- 4 - جورج لوكاتش، الرواية التاريخية، تر: صالح جواد الكاظم، دار الشؤون الثقافية، (د ط)، بغداد، العراق، 1998، ص 89.
- 5- المرجع نفسه، ص 46.
- 6- نضال شمالي، الرواية والتاريخ، ص 111، 112.
- 7- عبد الحميد القط، بناء الرواية في الأدب المصري الحديث، دار المعارف، (د ط)، القاهرة، 1980، ص 33.
- 8- عامر مغلوف، توظيف التراث في الرواية الجزائرية (بحث في الرواية المكتوبة بالعربية)، منشورات دار الأديب، ط 1، (د ب)، (د ت)، ص 17.

- 9- عامر مخلوف، الواقع والمشهد الأدبي (نهاية قرن وبداية قرن)، المكتبة الوطنية الجزائرية، (د ط)، الجزائر، 2011، ص 148.
- 10- عامر مخلوف، توظيف التراث في الرواية الجزائرية، ص 66.
- 11- محمد مفلح، الأعمال غير الكاملة، دار الحكمة، (د ط)، الجزائر، 2007، ص 438.
- 12- المصدر نفسه، ص 466.
- 13- المصدر نفسه، ص 154.
- 14- المصدر نفسه، 460.
- 15- المصدر نفسه، 461.
- 16- المصدر نفسه، ص 452.
- 17- الرعد، 11.
- 18- محمد مفلح، الأعمال غير الكاملة، ص 380.381.
- 19- المصدر نفسه، ص 381.
- 20- بنظر، حنا نصر الحتي، قاموس الأسماء العربية وتفسير معانيها، دار الكتب العلمية، ط3، بيروت، لبنان، 2003، ص 67.
- 21- محمد مفلح، الأعمال غير الكاملة، ص 382.
- 22- عامر مخلوف، توظيف التراث في الرواية الجزائرية، ص 60.
- 23- المرجع نفسه، ص 65.
- 24- محمد مفلح، الأعمال غير الكاملة، ص 348.
- 25- محمد مفلح، شعلة المائدة وقصص أخرى، أيدىكوم للنشر والتوزيع، (د ط)، قسنطينة الجزائر، 2013، ص 116.
- 26- عبد الحفيظ بن جلوي، الهامش والصدى (قراءة في تجربة محمد مفلح الروائية)، دار المعرفة، (د ط) الجزائر 2008، ص 35.
- 27- إبراهيم عباس، الرواية المغربية (شكل النص السردي في ضوء البعد الإيديولوجي)، دار الرائد للكتاب، ط1، الجزائر، 2005، ص 309.
- 28- عبد الحفيظ بن جلوي، الهامش والصدى، ص 35.
- 29- قدور عبد الله ثاني، سيمانية الصورة، دارالوراق، ط1، عمان، الأردن، 2008، ص 113.
- 30- محمد مفلح، الأعمال غير الكاملة، ص 191.190.
- 31- المصدر نفسه، ص 145.
- 32- بشير بويجرة محمد، بنية الزمن في الخطاب الروائي الجزائري (1970-1986)، دار الغرب للنشر والتوزيع، ط 2001-2002، الجزائر، ج1، ص 151.152.
- 33- محمد مفلح، شعلة المائدة وقصص أخرى ص 681.
- 34- محمد مفلح الكافية والوشام (صخب البداية)، دار المعرفة، (د ط)، الجزائر، 2008، ص 11.

- 35 - المصدر نفسه، ص 12.
- 36 - محمد مفلح ، شعلة المائدة وقصص أخرى، ص 415.
- 37 - المصدر نفسه، ص 418.
- 38 - بشير بويجرة محمد، بنية الزمن في الخطاب الروائي (1970 – 1986) ، ص 102.
- 39 - المرجع نفسه ص 192.